احتضار امرئ القيس[1]

غرضٌ شعريٌّ درامي

للدكتور احمد زكي ابو شادي

القاهرة

الى الصديق عيسى خليل صبّاغ

يا منطقَ الموتى ! اليك هديةٌ ... من شاعر عملوا على إخراسهِ

عُدّت مواهبه جنايةَ عصره ... فتآمروا للحدّ من أنفاسهِ

وتفنّنوا في وأد كل كريعة ... ويتيمة وقفت على إحساسهِ

ونعقبوه وطاردوه ففاتهم ... ودموعه طفحت بثورة كلمهِ

وأتى الى النفق ، فما رحموا له ... فكراً ، ولا قلباً يدقّ بياسهِ

حتى هرستَ اليه تنفذ وشلةٌ ... بقيتْ ، وترجعه إلى قرطاسهِ

وتُعنّف الزمن العشوم مهذّباً ... لقياسه ، بل ضارباً بقياسهِ

ومقدّراً غرر المآثر وحدها ... لا حاسداً يختال في أدناسهِ

وتخلّصاً مثلي — الذي يا طالما ... أسدى من الموتى ، ومن وسواسهِ

جُمعت عوارفه — وليس لمثله ... مهما اسيء — سوى الوفاء لناسهِ

---

(١) من القاهرة صدرت امريكا اخيرا وقام فيها بدور امرئ القيس الاستاذ عيسى خليل صباغ.

تمهيد

حين يفتخر العرب بتراثهم تتجلى أمامهم رؤى جميلة من ماضيهم العزيز في جميع العصور ، وبينها أدب امرىء القيس وسيرته في النخوة والثأر للأبوة والشرف . وانها لسيرة جديرة بأن تستظهر وتمثل في كل مناسبة ، كما يتمثل بشعر ذلك الملك الفذّ . كان امرؤ القيس بوهيميًّا فناناً ، وهب الشعر العربي كنوزاً من الجواهر النادرة التي جرت النقاد في لغات شتى ، فترجمت وشرحت وعززت ، وكانت استشهاداً وغناء وانه ليمثل التغاني في سبيل فنه الذي أحبه وهو (الشعر) ، وكرهاً لتعلقه به طرده أبوه الملك حجر . ولكنه لم يصرفه عنه ، إذ كان شاعراً مطبوعاً أصيلاً مبدعاً من الطراز الأعلى ، حتى اذا قتل والده وبلغه نبأه وهو يشرب لم يجزع بل قال في حزم الرجال : —

« ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر ، وغداً أمر » .

ويحدثنا التاريخ كما يحدثنا شعر امرىء القيس بالانتقام الرهيب الذي أنزله ببني أسد قاتلي والده وسالبي ملكه ، دون أن يعرضه اليأس أو الخوف أو قلة الأنصار ، عندما اتخذ قراره وإصراره ، فضرب المثل لكل جاد مهموم بقضية عليا يكرس جهوده لها . ولكنه لم يكتف بذلك ، بل ظل يسير في العرب يطلب النصر الأكمل واستعادة ملكه ، حتى ذهب به عزمه الى القسطنطينية لمحالفة الأمبراطور جوستنيان Justinian والاستنجاد به على أهل الحيرة . ولكن ابنته أحبت امرأ القيس الذي اشتهر بالتطف وجمال الطلعة . وكانت بينهما صلات غرامية ، فوشى به الى الأمبراطور ، وفطن امرؤ القيس الى ذلك فأسرع بالعودة الى بلاده . وبعث الأمبراطور في طلبه رسولاً أدركه دون (أنقرة) بيوم ، ومعه حلة ذهبية مسمومة وكتب إليه : « إني قد بعثت اليك بحلتي التي كنت ألبسها يوم الزينة ، ليعرف فضل منزلتك عندي ، فالبسها » . وصلت إليك فالبسها على اليمن والبركة ، واكتب اليّ من كل منزل تخبرني » . فلما وصلت إليه الحلة اشتد سروره بها ولبسها ، فسرى فيه السم وتنفط جلده ، والعرب تدعوه « ذا القروح » لذلك ؛ وفي هذا العرض الشعري التراجيدي الذي يمثل مأساة ذات ثلاثة مناظر تتجلى العواطف التي عاشت بامرىء القيس ابان احتضاره .

المنظر الاول

(في مقبرة بمدينة أنقرة بجبهة على لاحدى بنات ملوك الروم ، وقد وقف امرؤ القيس متفيئاً ظل الاشجار في صباح يوم من أيار سنة ٥٤٠ م ويدور بينه وبين آلام قروحه الحامة)

امرؤ القيس : أجارتنا ! إن المزارَ قريب ... وإني مقيمٌ ما أقام (صهيب)
أجارتنا ! إنا غريبان ها هنا ... وكل غريبٍ للغريب نسيب !

•

آه ... وآه ! ... وما موقفي ... بشكوى ، لكنها غصةٌ للأسد
يا قسوة الدنيا ويا غدرها ... لم تظلما مثليَ يوماً أحد !
أين يا (عمرو) أنت ؟
أين أنت يا رفيقي ؟
أمُستوارٍ على نبكي ؟
أتذكر لما كنت تبكي محاولاً ... تكوصي ، فهل بالدهر فدكنت أخبرا
ولكنني لم أرض إلاّ توثبي ... دليلاً ، وجابهت الشدائد قسورا !

•

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه ... وأيقن أنا لاحقان (بقيصرا)
فقلت له : لا تبك عينك ، إنما ... نحاول ملكاً أو نموتَ فنعذرا !

•

يا قروحي ! أما شبعت ؟ جسمي يتلظّى ، ولم يعد بعدُ غضّا
ساقطاً كالنشير من قطع النجم ، وقد ذابَ ساقط النجم ومضا
ليس لحماً ، ولا دماً ، بل ضياءً ، ورجاء طرحته اليوم أرضا
يا قروحي ! لا توهي يا قروحي ! إن أعش كالترابِ نهباً وخفضا
ليس روحي بل ليس جسمي من الدنيا ، وما وددتُ لو كنت ألقى

(ينهب من وجه أعواد ، بينما الطبيعة الخضرة تفيض بموسيقاها الوانية)

امرؤ القيس (يستعيد رشده في اضطراب) :

أُمرّ كهذه الأنغام ألحانَ ساحرٍ ... هوى جانب الأدهار برأ بآمالي

وهل ذلك الطيرُ المغرّد شيعةً ... تشد إليه ، لحنها بعضُ إخوانِ ؟
أهذا شعورُ المرءِ عاش ستين ... وهذا فيافي أم حواجبُ بلبالِ؟

*

ولو أنّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ ... كفاني ولم أطلب ، قليلٌ من المالِ
ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثّلٍ ... وقد يدرك المجدَ المؤثّلَ أمثالي

*

(تسمع سكتة الصفير مع بعض الموسيقى الحزينة)

عفا (اللاتُ) من طيرٍ أهبّ لشيدها ... ولو كان سحراً في لعجزي وإهمالي
ويا ما أحيلاها على أيّ حالةٍ ... وما حفلت يوماً بملكٍ وأوجالِ

*

كأنّ قلوبَ الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العنّابُ والحشفُ البالي

(وتشتد طبلة الالام ، ولكنه يتجلد ، ويتابع بروحه البطيئة المتمالية)

امرؤ القيس : وناديتُ (قيصر) في ملكه ... فأوجسني وركبتُ البريدا
(متوجساً) إذا ما ازدهتنا على سكةٍ ... سبقنا الفرانق سبقاً بعيداً

*

وقد طوّفتُ في الآفاق حتى ... رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ

*

فيا شمس (النهار) ألا سبيلٌ ... لما تدرين من هذا الظلام
لكم حاربته حراً عوانا ... وكابد غرّ منك ذا احتشام
فهل سيغرني إن غبتِ عني ... أنا النجمُ المضلّ الرغام ؟

*

أجيبيني أجيبيني ! فأني ... أعاني من قروحي ما أعاني
وإنّ شمتُ على الآلام نفسي ... وملّ شميمها عرفُ المعاني
أعانيها وأكتمها كأني ... أمينٌ ، حافظٌ سرّ الزمانِ

*

ويا هذي الفوانح من شعاعٍ ... ويا هذي الروائح من دوانٍ

ويا هندي الأزاهرُ من بناتٍ منعّمةً منوّعة الجمالِ
ويا هندي النسائمُ باتجاتٍ طبعنَ ثغورهنَّ على خيالي
أأنتَ الشفاء أتى حبيباً يُعزّيني، وقد سمع ابتهالي؟!

(يسمع عجائب الطبيعة المتنوع في الملاق شجية ماثلة)

امرؤ القيس : إنَّ النعاس يكاد يغلبني كأني من خصومه

(متثاقلا وقد غلبه النعاس) يا طالما عاندته
يا طالما عاندته

(موسيقى تأخذ مكانها)

المنظر الثاني

(يستوقظ امرؤ القيس في أصيل ذلك اليوم على آلامه المبرحة دون الانتفاع من نومه منذ الصباح، وقد بدأ يشعر بدنو منيته وتحولت رغبته الى يقين من غدر الامبراطور به)

امرؤ القيس :

أ غوى (النهار)، وفاني من تحسه ذاك العذولُ على السماء تلالا ؟
وكذاك عمري ... ما أرى (إصباحه) أضفى، ومن وهج (الظهيرة) نالا
ذم (الأصيل) هوى الصباح ولم أنل مجداً تألق في السماء وطالا

*

اضحكي يا قروحي ولتعضّي أشيبي !
اضحكي من قروحي في غرور الشبيبة !
ضاع عمري هباء مثلما ضاع مُلكي
ما درى من أساء لو درى كان يبكي

*

وهج (الظهيرة) لم أره وكذاك مجدي لم أره
كل الذي حولي سما ت بأدمعٍ في مقبره
ما أحقر الدنيا لمن رفع الحياء من الشره !

*

آه آه يا قلبي الجحيم ! جحيم كل جسمي لا يخف
وحول الريم من المجالي مشارع لا تضن ولا تجف
وأين يدفئني في ظلها ؟ وأين الغانيات له ترف ؟

*

أيها الأشراف فوق العشب ! يا صفو الرحيق !
أنعشيني أنا كالخمور غرّ لا أفيق !
أسكرتني سورة الحمّى فأضللت الطريق !

(فاصل موسيقي شجي)

امرؤ القيس : يا ليت شعري أسقمي من خدر (قيصر) يسقي ؟
أذاك سمّ دفين يحمّه خفق قلبي ؟ !

*

ماذا ؟ .... أحلّتك التي أهديتها كانت ملوّثة بسمّ قاهر ؟
يا بئس (قيصر) إن يكن إعوازه تدويخ مغترب وقتلة شاعر
إنّا بنو الآفلاك ليس بمخدنا وهم الزمان ولا الوجود الغائر
لبني الشرائم بالعوائف وحدها ونعاف أحكام القضاء الدائر !

*

يا حياتي ! آذن الليل بإطفاء سراجي
ها هي الشمس تحيّيني وقد حان زماني
ها هي الآلام قد خفّت وإن كانت تداجي
ها هي الأرض بدت تبتلّ من نثر الدّماع
قد بكت لي ، وبكاء الأرض أبي كابتهاجي
فأليها أنا ماض ، وتباريحي وداهي !

(يختم النظر بلحن غروب)

المنظر الثالث

(أشرف امرؤ القيس على الدور الاخير من احتضاره ؛ وقد لف من أية حركة ؛ وغربت الشمس ، ولكن الافق توهج بأصباغ الشفق ، وبدا هو وحيداً لا تحف به غير طيوف الموتى ونبات المقبرة ونجوم السماء . وقد سمع ـ بعد فترة ـ الصعرة السابقة للموت) .

امرؤ القيس : من ترى ذلك الذي شطّ في النقش ونقّض الأصباغ فوق السماء
(في ضعف) هل دمائي هذي؟... نعم... بل دمائي أهرقت في قروحي الرمضاء!

*

ولكنّ الظلام أراه يمتدّ ... الليّ ، فهل تخوّف من ذهابي
تمهّل أيها الجاني ! تمهّل ! ... فلا تعسى سلاسل لا تحابي
وضعفي مرهمي ، وعثار قلبي ... كما هشّر الصغير على انتحاب !

(فاصل موسيقي شجي قصير)

(ويتوالى الاغماء على امرىء القيس من سريان السم في جسمه ومن تأثير الحمى ، فيستيقظ وقد أشتد الظلام ورصعت النجوم السماء)

امرؤ القيس : وأنت يا نجومٌ خوافقُ الغيوبْ
(في ضعف متزايد) ما سرك المكتوم ؟ أنكبة القلوب ؟
تبدين كالعيون لكاسر الغيلانْ
وخاطري المجنون يرتو لها سكران !
وأنتِ يا نجوم . . . . . .

(ثم يفقد امرؤ القيس وعيه ، فلا يستيقظ الا لحظة يلفظ فيها مع آخر أنفاسه مطلع معلقته الخالدة وكأنما يرثي نفسه به)

امرؤ القيس (في نكرة الموت) : « قفا . . نبك . . من ذكرى . . . حبيب . . . ومنزل ! »

النهاية

الدكتور أحمد زكي أبو شادي